الثبات والإيمان في شخصية الإمام الحسين (عليه السلام)

إنّ عدم التكافؤ في العُدّة والعدد بين طرفي الحرب في ملحمة كربلاء واضح جداً؛ فجيش يزيد بن معاوية كان أُلوفاً مؤلّفة، بينما كان جيش الإمام الحسين (عليه السلام) أفراداً من أهل بيته وأصحابه. والتكافؤ عنصر ضروري ما بين الطرفين ـ سواء كان بينهما تقارب أم تنازع ـ ويتأكّد وجوده في النزاعات أكثر من أيّ مكان أو وقت آخر. إنّ التصدي لخصم غير متكافئ يستلزم عقيدة عسكرية تكفل طريقة للتفكير في عدم التكافؤ، وفلسفة عمليات لا تُغفِل ذلك النوع من عدم التكافؤ، وإنّما تأخذه في الحسبان جملةً وتفصيلاً. أمّا الإمام الإمام الحسين (عليه السلام) كان وارث الإسلام، ووارث تلك الثورة التي فجّرها جدّه، وأوصلها أبوه وأخوه، لكنّ الحسين في المقابل لم يرث جيشاً ولا سلاحاً ولا ذهباً؛ وبالتالي لم يرث أيّ قوّة جبهوية تُذكر، ولا حتى مجموعة منظّمة!! وكان هذا يعني بادئ ذي بدء أنّ القيادة الحسينية التي آمنت بالنضال وأقرّته كقاعدة أساسية لوجودها، هذه القيادة كانت ـ ككلّ قائد أو إمام يؤمن بالنضال ـ غير حرّة في اختيار طريقة هذا النضال، وإنّما كان عليها أن تخضع للظروف التي تُحيط بها، والتي تفرض عليها شكلاً معيّناً من أشكال الحرب.

أراد الإمام الحسين (عليه السلام) من خلال ملحمة الطف إعطاء درس متكامل في المبادئ، والقيم الدينية والأخلاقية والإنسانية لكلّ بني البشر؛ حتى لا يبقى لأحد من عذر يتحجّج به باسم عوامل الضغط وغيرها، فالقائد والمصلح يضحّي بكلّ ما يملك في سبيل إقامة أُسس العدل والخير، وليس شرطاً أن يبقى هذا القائد حيّاً بعد الثورة، وليس شرطاً اعتبار بقائه حيّاً في تحقّق النصر، بل ربّما يكون موته فاتحة للنصر الأكبر. إنّ ما فعله الإمام الحسين (عليه السلام) يدحض النظرية القائلة: إنّه (عليه السلام) أراد بثورته طلب السلطان. بل إنّ قائد الثورة يسير نحو الموت، وأنّ ثورته لن تنتصر بحسب المقاييس العسكرية، بل هي حركة فدائية تضحوية.

من أكبر عوامل النصر ـ النفسية والحقيقية ـ هو اليقين الثابت والإيمان الصلب الموجود في معسكر الإمام الحسين (عليه السلام). يقول الكاتب والمفكّر والمستشرق الإنكليزي توماس كارلايل: «أسمى درس نتعلّمه من مأساة كربلاء هو أنّ الحسين وأنصاره كان لهم إيمان راسخ با، وقد أثبتوا فعلاً بعملهم ذاك أن التفوّق العددي لا أهمّية له وقت المواجهة بين الحقّ والباطل، والذي أثار دهشتي هو انتصار

الحسين رغم قلّة الفئة التي كانت معه».

كان معسكر الإمام الحسين (عليه السلام) يطغى عليه التعبّد والتبتّل، والصلاة والتهجّد، بينما معسكر عمر بن سعد؛ معسكر واجم، مظلم، غارق بالذنوب، ويتّصف أصحابه بسواد القلوب، مع سواد الوجوه والنيّـِات. ولقد أثّر معسكر الإمام الحسين (عليه السلام) في أصحاب عمر بن سعد؛ فخرج بعض منهم والتحق بمعسكر الإمام الحسين (عليه السلام) لمّا شاهد سيماء الطاعة والخضوع ﷲ تعالى عليه. وفعلاً فقد بشّرهم الإمام الحسين (عليه السلام) بالجنّة في يوم العاشر من محرم، فلمّا فرغ (عليه السلام) من صلاة الظهر من ذلك اليوم، قال لأصحابه: «يا كرام، هذه الجنّة قد فتحت أبوابها، واتصلت أنهارها، وأينعت ثمارها، وزُيـّـِنت قصورها، وتؤلّفت ولدانها وحورها، وهذا رسول اﷲ (صلى اﷲ عليه وآله وسلم) والشهداء الذين قُتلوا معه، وأبي وأُمي، يتوقّعون قدومكم عليهم، ويتباشرون بكم، وهم مشتاقون إليكم».

وقد قال رسول اﷲ (صلى اﷲ عليه وآله وسلم) في كلامه مع أبي ذر الغفاري في وصف معسكر الإمام الحسين (عليه السلام) ومكانتهم السامية: «واعلم يا أبا ذر، أنّ للواحد منهم سبعين بدريّاً، يا أبا ذر، واحدٌ منهم أكرم على اﷲ من كلّ شيء خلق اﷲ على وجه الأرض». وقال عنهم أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): «لا يسبقهم مَن كان قبلهم، ولا يلحقهم مَن كان بعدهم».